ISSN: 2335-125X EISSN :2676-1734 مجلة الذاكرة
رقم العدد التسلسلي 15 مجلد: 08 عدد: 02 السنة 2020

الحكاية الشعبية الأمازيغية ودورها في تنمية القيم

" حكاية القنفذ والذئب نموذجا"

Amazighi folk tale and its role in developing values

"The tale of hedgehog and wolf as a model"

ادريس أقبوش

جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية

القنيطرة المغرب

البريد الالكتروني:akbouchidriss@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019/12/20	2020/04/09	2020/06/01

ملخص:

تحظى الحكاية الأمازيغية باهتمام كبير من لدن الباحثين والمهتمين، إلا أن تنوع الحكايات الأمازيغية يطرح إشكالا عويصا يستدعي القيام بعملية انتقائية تتكئ، بالأساس، على الاستقرار العلمي لكل حكاية على حدة لفرز ما يميزها عن الحكايات الأخرى، لأن كل حكاية تنقل في طياتها انشغالات الانسان المادية والفلسفية والوجودية، كما أنها تتضمن مجموعة من الخصائص الكونية، حيث تستقي مواضيعها وأنساقها العامة من الثقافة الإنسانية عامة، ثم تكيفها مع قواعدها اللغوية والجمالية والثقافة المحلية التي تختلف باختلاف المناطق الجغرافية والخصوصيات الاجتماعية والثقافية لكل

مجموعة، ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الحكاية الأمازيغية تعكس الممارسات الاجتماعية والاقتصادية الجماعية المختلفة التي تصور المجتمع على أنه وحدة عضوية مشتركة، بل تكرس في نفسية الأفراد أهمية التكتل والتوحد.

تشكل الحكاية الأمازيغية تعبيرا رمزيا دفينا يحتل مساحة واسعة في المخزون الثقافي للمجتمع الأمازيغي وقيمه وتقاليده وأعرافه، وهي تراث ثقافي مهم، ابتدعه المخيال الشعبي الأمازيغي تعبيرا عن حكمته وتجربته في تصوير أحداث الحياة وأساليب المعيشة، مستهدفا من ورائها تحقيق أهداف تربوية ونفسية واجتماعية كثيرة عاشت عليها أجيال وتربت عليها.

إن الحديث عن الحكاية الأمازيغية أو "تحاجيت" أو "لقيست" يستلزم الإشارة إلى أنها أدب شفوي لم يجد طريقه بعد إلى التدوين شأنه في ذلك شأن معظم مكونات الثقافة الأمازيغية. لهذا يبقى هذا النمط الأمازيغي غير معروف بشكل أكاديمي ولم ينل حظه من الدراسة والبحث، مما يعرقل عملية البحث ويحول دون تعميقه.

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن جانب من المرتكزات الرمزية غير المادية للإنسان الأمازيغي، كأحد المداخل المهمة في فهم طبيعة تفكيره وممارساته. وعلى الرغم من تعدد الحكايات الأمازيغية، فإننا سنكتفي في هذا البحث بعرض حكاية "القنفذ والذئب" لكونها تصور الواقع في أدق تفاصيله وبكل تناقضاته (الخير والشر...).

Abstract:

The Amazighi tale has become of enormous interest to researchers; however. The diversity of the amazighi tales poses a difficult problem which requires a selective process of each individual tale to dissect the essence of its

characteristics and distinguish it from others. For each tale carries human materialistic, philosophical, existential and universal concerns. It derives its topics from human culture in general and it is adapted to local linguistic, aesthetic and cultural norms, which differ according to geographical and sociocultural characteristics of each group. From this standpoint the Amazighi tale depicts different collective socio-economic practices that not only portray society as a common entity, but also stress upon the importance of unity and collectivism.

The amazighi tale constitutes a hidden symbolic expression that occupies a wide area in the cultural repository of the amazighi community; in this framework it constitutes an important cultural heritage created by the amazighi folk imagination as an expression of its wisdom and experience in depicting life events and life ways beyond, which many educational, psychological and social objectives were realized to educate generations, and for other generations to live.

Taking about the Amazighi tale "tahajijt" or "laqist" requires referring to it as an oral literature that has not yet found its way to documentation compared to other components of the amazighi culture. Thus, this Amazighi style remains academically unknown for it did not get its share of research. And this makes it more difficult to conduct deepened studies about it.

This research aims to reveal a side of the symbolic non-material foundations of the Amazighi people as a starting point to understanding their nature and practices. Thus, Due to the abundance of Amazighi tales this research will present the tale of the hedgehog and the wolf as it depicts reality in its most intricate details and in all its contradictions (good and evil).

Key words: Amazighi tales, human culture, folk imagination, values.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الأمازيغية؛ الثقافة الإنسانية؛ المخيال الشعبي؛ القيم.

مقدمة:

لا يمكن تصور تاريخ بشري خال من الحكايات، لذلك فإن السؤال المركزي الذي سأثيره في هذا البحث هو، إلى أي حد ساهمت الحكاية الشعبية في توجيه السلوك وتنمية القيم؟. "وقد تبين من خلال التحليل والفحص أن الحكاية تشكل تعبيرا رمزيا دفينا يحتل مساحة واسعة في المخزون الثقافي للمجتمع الأمازيغي وقيمه وتقاليده وأعرافه، وأنها تحمل في طياتها إجابات عن قضايا تاريخية مسكوت عنها ولو بطريقة مراوغة وملتوية، كما أنها تعكس الواقع رغم تلونها بمسحة من الخيال، ومن ثم تشكل تمثلا للذاكرة الجماعية، بما تتيحه دلالاتها من إمكانيات الكشف عن البنية النفسية المخبأة، والمشاعر والمواقف العاكسة لقيم وثقافة المجتمع"[1]. إنها بتعبير G. Calame Griaule نوع من المرايا التي يرى فيها المجتمع نفسه، أو الأداة التي يعبر بها عن الأفكار والمشاعر التي لا يمكنها الظهور بوضوح في الحياة العادية[2]. لذلك تعتبر الحكاية الشعبية من الأجناس المحبوبة التي تحتل حيزا مهما في أوقات الفراغ لدى المجتمع الأمازيغي، فإلى جانب الغاية التربوية منها، فإننا نجد أن بعضها يستهدف إرساء مبادئ التمسك بوحدة الأسرة والجماعة والقبيلة أو الشعب. كما يتم عبرها شحذ مهارات الطفل في إدراك الصور الخيالية، وتدريبه من خلالها على المواقف الأخلاقية والإنسانية السليمة. ومن أهم السمات الاجتماعية للحكاية الشعبية أن العديد من نصوصها تلقن المستمع مواقف في التكافل والتعاون والعمل الجماعي، ومن أمثلتها البارزة حكاية الشراكة بين القنفذ والذئب. ولعل القراءة

التحليلية لهذه الحكاية يمكن أن يساعدنا على فهم المجتمع الأمازيغي وما يرتبط به من قضايا.

في سياق تحليل الحكاية الأمازيغية، يمكن الانطلاق من التساؤلات التالية: ما معنى الحكاية الأمازيغية؟ وهل هي مرتبطة بالحالة الراهنة أي أن ما يقصه الراوي من أحداث تمت بصلة إلى واقعه وظروفه ومحيطه، أم تتجاوز زمنها ومجالها؟ وقد يجرنا هذا السؤال إلى البحث عن الأسباب التي جعلت من الحكاية الأمازيغية صامدة لقرون؟ وما هي القيم التي تحملها حكاية "القنفذ والذئب"؟.

سنسعى من خلال هذه الورقة عبر هذه الأسئلة إلى مقاربة الحكاية الأمازيغية من خلال أربعة محاور أساسية، تتحدد فيما يلي:

1- الحكاية الأمازيغية وأصنافها

إن التطرق لموضوع الحكاية الأمازيغية ودورها في توجيه السلوك وتنمية القيم، يتطلب الوقوف عند مفهوم الحكاية.

1-1- تعريف الحكاية:

الحكاية من حكى، يحكي حكاية، بمعنى قص وروى، والحكي هو الكلام. والحكاية مجموعة من الأحداث الخيالية والواقعية المرتبة زمنيا ومنطقيا[3]. وقد عرفها ابن منظور كما يلي "الحكاية: كقولك حكيت فلانا وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية... وفي الحديث: ما سرني أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا أي فعلت مثل فعله. يقال: حكاه وحاكاه، وأكثر ما يستعمل في القبيح المحاكاة، والمحاكاة المشابهة، تقول، فلان يحكي الشمس حسنا ويحاكيها بمعنى..."[4]، في حين وردت في المعجم الوسيط بأنها "ما يحكى ويقص، وقع أو تخيل، وهي من

فعل حكى، ويقال حكى الشيء حكاية أتى بمثله وشابهه. يقال: هي تحكى الشمس حسنا"[5]، وجاءت في القاموس المحيط بأنها " من فعل حكى ويقال حكيت فلانا، وحاكيته أي شابهته، وفعلت فعله أو قوله سواء، حكيت عنه الكلام حكاية: نقلته"[6]. وتسمى الحكاية لدى إيمازيغن بعدة تسميات، منها ""تانقيست" أو "ؤميي" أو "تانفوست" أو "تيمزريت" أو "تيميندت" أو "تاديانت""[7]. وخلاصة القول في المدلول اللغوي للفظة الحكاية هي أن مجمل المعاجم تتفق على مدلولها، رغم اختلاف تسمياتها من منطقة لأخرى وخاصة داخل المناطق الأمازيغية.

إن أهم ما تمتاز به الحكاية الشفوية هو أنها غالبا ما لا يعرف مبدعها، فهي من إبداع الشعب حامي الذاكرة الجماعية[8]، وقد يتم هذا الإبداع، لأول وهلة، بدون قصد ثم تعمل الأجيال على تنقيحه والإضافة إليه. ومن المعروف أن الإنسان الأمازيغي قد عرف الحكاية الشعبية منذ القديم، فقد كانت موجهة إلى الصغار وقد حافظت على ترتيبها الزمني من عقدة ووسط ونهاية، وتتميز بتركيزها الشديد على عنصر التشويق وإثارة الفضول بشحذ عوامل الصراع وملامح الغموض وعنصر المفاجأة، وهذه شروط تستجيب لأحاسيس الطفل ورغباته وميله إلى فهم الأشياء ومنطق الحياة من خلال اللعب، مما يفسر إقبال الأطفال على الحكايات الشعبية لما فيها من متعة وتشويق وخيال[9].

1-2- أصناف الحكاية الأمازيغية

الحكاية الشعبية الأمازيغية هي أحدوثة يسردها راو في جماعة المتلقين، وهو يحفظها مشافهة عن راو آخر، ولكنه يؤديها بلغته، غير متقيد بألفاظ الحكاية، وإن كان يتقيد بشخصياتها وحوادثها، ومجمل بنائها العام[10].

يجمع كثيرا من الباحثين على أن الحكاية الأمازيغية تتكون من ثلاثة أصناف وهي: الحكاية الحيوانية، الحكاية الآدمية والحكاية الخرافية.

1- الحكاية الحيوانية: حكايات يحضر فيها الحيوان بشكل واضح. وقد يفسر هذا الحضور بكون الحيوان جزءا من بيئة الإنسان الأمازيغي، لأن الطابع الغالب للجغرافية الأمازيغية هو غلبة الجبال وكثافة الغابات والمياه والأنهار وما يتلو ذلك من فجاج وعرة وفلاحة أساسها التحرك وغلبة الرعي، وهذه الجغرافية الإيكولوجية فرضت على التفكير الأمازيغي مرافقة الحيوان ومحاورته باعتباره وسيلة التنقل المتاحة في جغرافية المنطقة ومصدر العيش[11].

2- الحكاية الآدمية: هي نماذج من الحكايات تعالج قضايا اجتماعية مختلفة مستقاة من أنماط العيش والممارسات والعادات والتقاليد، بطلها الإنسان بمواقفه ودهائه ومهارته[12]، بل ويكون الشخصية البارزة في مختلف الأحداث، يقتصر فيها الحيوان على أدوار ثانوية.

3- الحكاية الخرافية: هي في أغلبها نص سردي يأتي على لسان الحيوانات، أعد خصيصا للأطفال. وهذا النموذج من الحكايات يرمي إلى تغليب الخير على الشر، وله طابع التعليم الأخلاقي، ومن أهم سماته الاجتماعية أن العديد من نصوصه تلقن المستمع مواقف في التكافل والتعاون والعمل الجماعي، ومن أمثلتها البارزة حكايات "القنفذ والذئب"[13]. وقد يتخذ كل من الإنسان والحيوان في هذه الحكايات مظهرا أسطوريا في شكله واسمه ودوره، وهنا

يشكل الإنسان و الحيوان شخصيتين محوريتين فاعلتين في صنع أحداث الحكاية.

2- الحكاية الأمازيغية بين الخصوصية والكونية

تنفرد الحكاية الأمازيغية ببنية سردية مرنة تستجيب لمقتضيات ظروف إنجازها من قبل الراوي الذي كثيرا ما يتوفر على ملكة تتيح له التصرف في النص المروي مع احتفاظه بتوابثه الأساسية، وذلك تحت وطأة حتمية التفاعل الفوري والمباشر مع جمهور المتلقين لخطابه، إذ يفترض فيه التحلي ببديهة لا تقبل التردد وبقدرة على تصوير المواقف والمشاهد لجذب الجمهور، حيث يعتمد إضافة إلى طريقة السرد على إمكانيات درامية تتمثل في الحركات والصوت والإيماء[14]، مما يمنحها قدرة على الإيحاء والتأثير، وغالبا ما يكون الإلقاء مصحوبا بتلوين صوتي، يناسب المواقف والشخصيات، وبإشارات من اليدين والعينين والرأس، فيها قدر من التمثيل والتقليد[15]. وكانت الحكاية الشعبية موجهة بالخصوص إلى الأطفال الصغار، وغالبا ما ترويها العجائز لأطفالهن، في ليالي الشتاء الطويلة، قبل الذهاب للنوم، وقد يرويها غير العجائز في مواقف يقتضيها الاعتبار وضرب المثل، ولكن الحكاية لا تسرد على الأغلب إلا ليلا في جو يتم التهيؤ له[16]. وبالتالي، فثمة مجموعة من الإشارات التاريخية التي تثبت مدى اهتمام أمازيغ شمال إفريقيا بالحكاية الشعبية إبداعا وحكيا وحفظا، حيث أورد الملك الأمازيغي يوبا الثاني في كتابه "ليبيكا" حكاية شعبية ذائعة الصيت تسمى بقصة "الأسد الحقود"، ويقول عنها محمد شفيق بأن "**الجدات ما زلنا في بوادينا، إلى يومنا هذا، يقصصنها على أحفادهن باللغة البربرية في ليالي السمر من فصل الشتاء. إن في ذلك لدلالة على أن الأدب الشفوي قد يحفظ خيرا مما يحفظ المدون**"[17]. وقد أشاد مؤرخو العصر الوسيط وعلى رأسهم ابن خلدون بالتراث الحكائي الشفوي الأمازيغي بشمال إفريقيا، حيث قال بأن البربر لديهم الكثير

من الحكايات والقصص، ولاسيما حكايات الحيوانات، فلو جمعت ودونت لملئت بها مجلدات ضخمة. ويعني هذا أن مجموعة من الحكايات الشعبية الأمازيغية أصبحت في طي النسيان، لأنها كانت تعتمد الشفوية دون الكتابة، فلم يقدر التدوين من جراء ذلك إلا لعدد ضئيل منها، أما الباقي فإنه ضاع عبر مرور الزمان بعد أن ردده جيل أو جيلان أو ثلاثة أجيال في أحسن الحالات[18]. وقد سبق لفروبينيوس أن شهد غنى المتن الحكائي الأمازيغي وثرائه، فقال "**أؤكد رسميا، وبكل ما أعرفه عن الثقافات الإفريقية المختلفة، وكل ما تمكنت من استجماعه من الشعر والأدب الشفوي بمنطقة القبايل. أن الثقافة الأمازيغية يمكنها أن تتبوأ وبحق الرتبة الأولى. ذلك أن التنوع والغنى المثير لموضوعاتها، وحيويتها التلقائية في فن الحكي، وسعة الإبداع، والحقيقة والرقة وفلسفة الحياة ودقة اللفظ...كلها أمور مؤثرة ومحركة للشعور، وهي خصائص قوية ومتميزة جدا، بحيث لا أتردد في أن أخص القباليين بالمرتبة الأولى بين كل الأفارقة**"[19]. وهو حكم، وإن كان يعني القبايل التي حظيت بدراسات أوفر في هذا المجال، فإنه ينسحب على كل التراث الحكائي الشفوي الأمازيغي بشمال إفريقيا الذي أشاد به –كما أسلفنا ابن خلدون–، وقد أكد عبد الحميد بورايو المتخصص في دراسة الحكاية المغاربية حين وصف الجماعات الأمازيغية في تراثها بأنها "**اعتنت ولازالت تعتني بشكل ملفت للنظر بالحكايات الخرافية، وهو ما يسجله معظم الباحثين الذين تناولوا تراث المناطق البربرية منذ أقدم العصور**"[20].

وتقوم الحكايات الأمازيغية، كغيرها من حكايات العالم، على الخيال المبدع وتوظف القوى الخارقة والأبطال المثاليين وتنقل في طياتها انشغالات الانسان المادية والفلسفية والوجودية وغيرها، وتتوفر فيها مجموعة من الخصائص الكونية، حيث تستقي مواضيعها وأنساقها العامة من الثقافة الإنسانية عامة، ثم تكيفها مع نواميسها اللغوية والجمالية والثقافية المحلية

التي تختلف باختلاف المناطق الجغرافية والخصوصيات الاجتماعية والثقافية لكل مجموعة[21].

بناء على ذلك، يمكن القول إن الحكاية الشعبية الأمازيغية لا تختلف كثيرا عن سائر الحكايات الشعبية لدى الأمم الأخرى، فهي تخضع للخطاطة الشكلية نفسها التي رسمها النقاد والدارسون لهذا الجنس في مختلف الآداب الشفهية الشعبية التقليدية في جل الثقافات الإنسانية. هذه الخطاطة النمطية والكونية التي تنطبق عناصرها ومحدداتها على الحكاية الأمازيغية كما تنطبق على حكايات الشعوب الأخرى، وتجعلها مميزة عن باقي الأجناس التي تشبهها في الإبداع السردي الشفهي كالملحمة والأسطورة والنكتة... ولذلك فإن أنساق الحكي والسرد في الحكاية الأمازيغية تقوم على نفس الهيكلة والتصورات العامة التي توجد في الحكي في كافة أنحاء العالم، وتتشابه معها في عدة ملامح[22].

ولا شك أن الدراسة العلمية للحكاية الأمازيغية سوف تكشف بأن الموروث الثقافي لهذا الأدب هو نتاج تلاقح وتراكم تمتزج فيه ترسبات مختلفة، تغوص بجذورها في أعماق التاريخ القديم وتستمد مكوناتها من تعاقب حضارات إنسانية مختلفة، قبل أن يستقر الأساس الثقافي للمغرب على ما هو عليه الآن بتعدد وتنوع أشكاله الفنية والتعبيرية. وهذا ما وضحه محمد شفيق عندما قال "**إن الثقافة الأمازيغية لم تنحصر، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، في ما هو خاص بهم متوارث عندهم، بل كانت دائما ثقافة مفتوحة غير منغلقة على نفسها. ولذلك ساهم البربر مساهمة مهمة في تشييد أركان الحضارات والثقافات الكبرى التي تعاقبت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ابتداء من أواسط الألف الأول قبل الميلاد**"[23]. وفي هذا السياق، يمكن القول إن الحكاية الشعبية الأمازيغية تتلاقى مع مجموعة من الحكايات العالمية، وتتفاعل معها ثقافيا، وذلك عبر جدلية التأثير والتأثر. في هذا

الصدد يقول محمد أقضاض "**يدل ذلك على مرونة الثقافة الأمازيغية في تعاملها مع الثقافات الشعبية في العالم، والحكاية الشعبية تشكل أحد أهم عناصر تلك الثقافات. كما يدل على عمقها الكوني والإنساني، وعلى تفتحها وقدرتها على المثاقفة، فالشعب المغربي بكل جماعاته، خاصة على شاطئ المتوسط، يغني ويغتني باستمرار**"[24]، ويعني هذا أن الحكاية الشعبية الأمازيغية تتسم بخاصية الانفتاح والتأثر والاستفادة من التجارب البشرية المجاورة، ولاسيما تجارب الانسان الذي يعيش على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. وفي هذا الإطار(أي المثاقفة)، يقول محمد أقضاض "**وقد عاش شمال إفريقيا تلك المثاقفة عبر العصور، كما تعرض لمثل ذلك الهجوم بشكل متكرر من عدة شعوب في شمال وشرق البحر الأبيض المتوسط، منذ فجر التاريخ، لذلك يمثل المغرب أحد أهم بلدان شمال إفريقيا التي تفاعلت وتثاقفت مع شعوب أخرى، خاصة شعوب البحر الأبيض المتوسط، في لغته وسلوكه وفكره، وفي مجالات روحية ودينية وفنية وأدبية، سواء على المستوى الشعبي أو على المستوى العالمي، لذلك، خوله موقعه أن يكون أحد أهم البلدان المتفتحة على مختلف الثقافات والمؤثرة فيها. وكان الأدب، بما فيه الحكي أكثر استفادة من ذلك التفتح**"[25]. وقد نقف في الحكايات الأمازيغية على تيمات تنتمي إلى الميتولوجيات الكلاسيكية اليونانية أو الرومانية، وموضوعات ترد ضمن الميتات المعروفة في الحوض المتوسطي مثل تيمة الملك (ميداس) Midas وميت وتيمة بيرسيوس وأندروميدا المتواترة في عدد من حكايات بلاد الأمازيغ كلها[26].

3- العوامل المساهمة في صمود الحكاية الأمازيغية

إن الحكاية الأمازيغية لا تفقد قيمتها وقوانينها وضوابطها بترجمتها إلى لغة أخرى، لأنها تجاوزت بكثير العائق اللغوي والنسق القيمي وكذا السياق الثقافي. وهذا ما جعلها، إلى حد كبير، قادرة على الصمود أمام كل اللغات

والثقافات المتوافدة، والتي حاولت مسخ وطمس معالم اللغة الأمازيغية[27]، إلا أن الواقع أثبت أن اللغة الأمازيغية لا تزال حية، محافظة على كيانها الذاتي الذي لا يتجلى بوضوح تام وبكل عناصره إلا لمن كلف نفسه قليلا من الاهتمام باللهجات وما بينها من التداخل والتكامل، متجها وجهة التماس العوامل الموحدة، لا وجهة التماس العوامل المفرقة بينها كما كان يفعل عدد من الباحثين الفرنسيين. واللغة الأمازيغية في وضعها الحالي، أي بصفتها لغة حية يتخاطب بها الناس، في تلقائية وعفوية، قابلة للانتعاش والنمو والازدهار، لاسيما أن لها نظاما اشتقاقيا جد مرن يتفاعل فيه الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر مع النحت والتركيب المزجي تفاعلا يضاعف إمكانات الخلق المعجمي اليسير المنال[28]. إذن فتداول الحكاية الأمازيغية مرتبط باستمرار الأمازيغية.

تتميز الحكاية الشعبية الأمازيغية بالعراقة أي أنها ليست من ابتكار لحظة معروفة أو موقف معروف، ثم الانتقال بحرية من شخص لآخر عن طريق الرواية الشفوية، وأخيرا المرونة التي تجعلها قابلة للتطور في الشكل والمضمون تبعا لمزاج الراوي أو مواقفه أو ظروف بيئته الاجتماعية، وما يدل على عراقة الحكاية الأمازيغية أن الراوي يردد العبارة التقليدية المعروفة "نان إمزوورا" (قال السابقون)[29]. عندما نتحدث عن الراوي، لا بد من استحضار قوة الذاكرة، لتكون استمرارية بين فترات تاريخية متباعدة زمنيا، لكنها منسجمة في ذهن الراوي، رغم اعتمادها على الثقافة الشفهية والتي تقوم على تكرار المعرفة باستمرار. وإذا ما عرفنا أن اللغة الأمازيغية كان لها قصاصها الذين يقصون على الأطفال أقاصيصهم، أدركنا حينئذ قيمة هذا التراث الذي استمر جيلا بعد جيل.

4- قراءة في حكاية القنفذ والذئب

1- الحكايات الشعبية:

تتعدد الحكايات الشعبية لدى الأمازيغ، وسنعرض في هذا المضمار بعضا منها لنقف عند رمزيتها ومضامينها، ومن بين هذه الحكايات نجد:

2-1-القنفذ والذئب[30].

إِشُّوزْوِشْنْ ذْيِنْسِي ثَحْرَاتْ أَرِيگُّيِوِيضْ أُونْبْذُو دُون أذْمْجْرنْ، نْتَاإِحْمَا أُوزِيزْ إِنَّاسْ إِنْسِي إِوِشْنْ إِسْتْعْرِيظْ طْرْسَايْنْ إِقْنَّا أَتْبْظُو أَذَخْشِيگْرْ إِمْنِّي دُونَّارْتْ إِدُّوِشْنْ أَرِيتْتَّارْ أَرِيگَسْتْتْسْرْ تُويِي. إِنَّاسْ إِنْسِ إِسَگُّيمْنْعْ أَتْتَّارْظْ، إِنَّاسْ إِنْسِ أَوْرَ أَتْمْجرِظْ أَنْدُوخْ أَتْتَّارخْ، إِدُّو يْنْسِي يَاسِي ثَازْذُوزْثْ إِدُّو أَرَمَرُو إِنَّاسْ والله أَيْبَّام أَوْرْ ثُوطُوظْ نْقْخْگْمْ.

نْتَا إِوْجْذْ أونَبْذُو، إِنَّاسْ ينْسِي يُونْ أَذْيَوِي إِمْنِّي يُونْ أذْيَوِي أَرِيمْ، إِقْبْلْ وِشْنْ إِنَّاسْ وِشْنْ غُورْگُ لْحَقْ أَعْمِي يِنْسِي، هَاتْتْكِينْ أغَيَوِينْ إِمْنَّيِ إِذْ شْگِّينْ أَرِيمْ، إِنَّاسْ يِنْسِي غَذُورْتْزْرِيبْنْ. هَانْگِّينْ سُورْخْ گُونَّانِيخْ مَاشَنْ، اخْسَّاگْ أَتْگَّالْظْ، أَتِينِيظْ أُوحْقْ أَيْنَيْلاَّنْ دَّو أُوقْزِيز غسْنْكِينْ أغَيَوِين إِمْنِي، إِسْذْ أَرِيمْ وِنعمي يِنْسي إِبْرْمْ أقْزِيز إِفْغْذْ أُويْذِي إِرْوْر وِشْنْ أَرِيتِينِي إِمْنِي ذْوَرِيم وِنْعْمِي ينسي.

إِمْجمَعْ يِنسِي ذْوِشْنْ، إِنَّاسْ يِنْسِي شْحَالْ تِيسَّالْ أَيغُورْگْ إِنَّاسْ وِشْن عشرة، إِنَّاسْ إِشْگِينْ أعمي يِنْسِي إِنَّاسْ يُوثْ، نَّاسْ وِشْن مَايْنْتْگَا إِنَّاسْ يِنْسِي أَنْدُوغْرْ سِيشْتْتْبحِيرْتْ، ثِيرِي ثْبْحيرثْنَ سْلْبَابَ إِذُورَاسْ سْرْگْ، أُوگَانْ إِغْزْوِشْنْ أَخْبُو دَوْنْسْرْگْ، گْشْمْنْ ثَبْحيرْثْ، إِنْسِي گُويثْشَّا إِثْقْيَاسْ، إِذْ أُوشْنْ إِهْذَا بْزَّافْ. نْتَسْلِينْ إِبَابْ نْبحيرْثْ. إِرْوْرِينْسِي إِفْغْ، إِذْ أُوشْنْ إِثْوُعْرْ، إِنَّاسْ يِنْسِي مَني عشرة تِيسَّالْ، إِنَّاسْ وِشْن فُوكَيِي هَاثْمُوثْخْ، إِنَّاسْ يِنْسِي دُو أَلَقْمُولْبَابْ ثْهْزَّاذْ أَظَارْ ثْگُظْ أَمَنِيثْمُوطْ، ثَلْظْ إِيِيزَانْ أَذَگَّگْشْمْنْ أَقْمُو ثْحْبْسْظْ أُونْفُوسْ هَانْبُوثْبْحِيرْثْ ذَكِيگْرْ غْرْبْرَا نْتَا إِگَّرَثْ بُوثْبْحِيرْثْ غْرْبْرَا، أُوگَنْ إِرْوْر وِشْنْ غْرْعَارِي أَرِيسْغُويُو بُوثْبْحِيرْثْ إِنَّاسْ وَسَا أَكِيتَوِي أَبُويمْجَانْ[31].

إن اختيار عنوان الحكاية "الذئب والقنفذ" مستمد من عناصر بارزة في الحكاية، حيث تم التركيز على الشخوص الرئيسية في وضع العنوان، ومن مميزات العنوان في هذه الحكاية هو الربط بين عنصرين أحدهما البطل والآخر بطل مضاد. أما على مستوى المضمون، فقد جاءت مضامين هذه الحكاية الشعبية الأمازيغية متعددة الموضوعات والمعاني، فكانت مرآة الحياة وصدى الآلام والمعاناة والأحلام وعبرت عن الحكمة والفضيلة، ولذلك جاءت مضامينها على صورة صراع بين الخير والشر، إلا أنها انتهت بنهاية سعيدة، تتمثل في قضاء القنفذ على مكر الذئب.

تحتل الحكايات الشعبية حيزا مهما في أوقات الفراغ لدى المجتمع الأمازيغي، فإلى جانب الغاية التربوية منها، فإنها تهدف إلى إرساء القيم السائدة دينية كانت أم اجتماعية أم ثقافية، وترسيخ تجربة السلف في الأذهان لاستخلاص الموعظة والعبرة، كما هو الحال بالنسبة للأمثال. وهذا النموذج من الحكايات (حكاية الذئب والقنفذ) يرمي إلى تغليب الخير على الشر، ومن أهم سماته الاجتماعية أن العديد من نصوصه تلقن المستمع مواقف في التكافل والتعاون والعمل الجماعي، ومن أمثلتها البارزة حكاية الشراكة بين القنفذ والذئب. وقد تصور لنا هذه الحكاية أيضا الأنشطة الاقتصادية التي يقوم بها الإنسان الأمازيغي، وخاصة تلك التي ترتبط بالأرض، إذ إن هناك علاقة حميمية بين الأرض والإنسان بصفة عامة، والأمازيغي بصفة خاصة، حيث تمثل الأرض مصدرا للنشاط الفلاحي والرعوي. وبالتالي، تتحول الحكاية الشعبية الأمازيغية إلى وثيقة اجتماعية وتاريخية وإثنوغرافية ترصد لنا مختلف الظواهر التي كانت معروفة في المجتمع الأمازيغي سواء كانت إيجابية أم سلبية. كما تقدم لنا مجموعة من العبر والحكم، وذلك في مجال القيم والأخلاق والفضائل بغية تمثلها بشكل من الأشكال، والعمل بها في الحياة الإنسانية اليومية والواقعية.

نستنتج من حكاية الذئب والقنفذ، أن الذئب سيد وفي نفس الوقت مسود، فهو يحجب ويستر ويغطي الوجه الحقيقي للسلطة، فإذا سقط الذئب انكشفت السلطة، تم إن الذئب يرمز إلى الاحتيال والمكائد والدسائس، كما أن الذئب يعبر عن الذكاء السلبي أو الذكاء غير النافع، الذي يقابله الذكاء النافع الذي يرمز إليه القنفذ[32].

يلتقي الذئب والقنفذ، ويقترح عليه القنفذ أن يشتغلا مزارعين ثم ينتهي بعد التحايل على الذئب إلى شقاء هذا الأخير[33]. يلتقي الذئب والقنفذ مرة أخرى، الذئب مستاء من أحواله يقترح عليه القنفذ أن يذهبا إلى البستان ثم ينتهي الأمر بنفس النتيجة، إلا أن هذه الحكاية الأخيرة تظهر الشخصيات البشرية ثم تتراجع، أو تختفي لتفسح المجال للشخصيات الحيوانية. الواقع أن تراجع الشخصيات البشرية، واختفاءها وظهورها لتترك المجال للقنفذ والذئب، يفسره أن الشخصيتين معا، تجسدان الفعل الإنساني، فالأحداث التي تشكل المادة الحكائية شديدة الارتباط بما يفعله الإنسان في الماضي كما في الحاضر.

تتناول هذه الحكايات المغامرات الطريفة لبعض الحيوانات كالذئب والقنفذ، ويبدو أن القنفذ شخصية مفضلة، تنتهي الأحداث دوما لصالحها، فهي تشكل نموذج الشخص، العقل الذي يحسن استغلال ما يتوفر لديه من فرص ووسائل...أما الذئب فهو نموذج الشخصية التي تحاول أن توازي بين العقل والجسد، –إلا أن الغلبة في النهاية تكون للجسد– للغرائز، فتحدث لها انزلاقات في تركيبتها النفسية[34]. وتبدو هذه الحكايات خرافية في الغالب الهدف منها شحذ مهارات الطفل في إدراك الصور الخيالية، وتدريب الناشئة على المواقف الأخلاقية والإنسانية السليمة. وأخيرا يمكن القول أن هذه الحكاية(حكاية القنفذ والذئب) تتضمن مجموعة من القضايا الدلالية والسمات الفكرية، وتشتمل كذلك على مجموعة من الأطروحات الدلالية الذهنية، ومنها

تقابل ثنائية الخير والشر، والتي تتضح من خلال تشغيل مجموعة من الرموز والعلامات.

خـــلاصـــة:

تختزن الحكاية الشعبية الأمازيغية ذاكرة الإنسان الأمازيغي وتلخص تجاربه الحياتية وتقاليده وطقوسه الرمزية، وتعبر عن رؤاه وتصوراته للوجود، وتعكس ممارساته الاجتماعية وانفعالاته النفسية وتمثلاته القيمية، لكن للأسف لازال يغلب عليها طابع الشفوية، وبذلك تشوبها الزيادة والنقصان بوعي أو بدون وعي، وأسوأ من ذلك تتعرض للتلف والنسيان، بسبب فقدان الجدات وكل من يحتفظ في ذاكرته بهذه الحكايات. وقد صدق نيلسون مانديلا عندما قال "**إن فقدان عجوز في قارتنا الإفريقية بمثابة إحراق مكتبة بأكملها**". من هذا المنطلق، وجب علينا تدوين هذا التراث لحمايته من الاندثار خاصة وأن المرحلة تتميز بمحاولة فرض النموذج الأحادي وذلك عبر العولمة والتكنولوجيا الحديثة، ومنها التلفزة التي دخلت البيوت واستحوذت على أذهان الأطفال بما حملت إليهم من صور ومن معلومات في لغات أخرى يصعب عليهم فهمها.

- الـهـــــــــــــوامـــــــــش:

[1]- بوتشيش ابراهيم القادري، "النكتة كمصدر للكتابة التاريخية"، في **مؤتمر المؤرخ العربي بالدوحة**، حوار أجرته معه أنفاس بريس، الخميس 16 ماي 2019، 01: 16.

[2]- Camille Lacoste- Dujardin, **le conte Kabyle**, Etude ethnologique, Paris, Maspero, 1975, p, 23.

[3]- النصيري نورالدين، " الحكاية الأمازيغية وأشكال توظيفها تربويا"، **الحوار المتمدن**، العدد 4344، بتاريخ 24 يناير 2014.

[4]- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955، ص، 954.

[5]- المعجم الوسيط، **معجم اللغة العربية**، منشورات مكتبة الشروق الدولية، ص، 190.

[6]– محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، **القاموس المحيط**، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، منشورات مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 2005.

[7]– شفيق محمد، **المعجم العربي الأمازيغي**، الجزء الأول، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الطبعة الثانية، 1996، ص، 282.

[8]– بن الشريف البشير، "الدور التربوي للحكاية: الحكاية الأمازيغية، فضاءاتها، أنواعها (حكايات القنفذ والذئب)"، **الأدب الشفوي الأمازيغي معالم وأبعاد**، منشورات جمعية بويزكارن للتنمية والثقافة، أكادير، الطبعة الأولى، 2013، ص، 26.

[9]– المرجع نفسه.

[10]– المرجع نفسه.

[11]– المرجع نفسه.

[12]– بن الشريف البشير، م،س، ص، 28.

[13]– المرجع نفسه، ص، 27.

[14]– المجاهد الحسين، "الأدب الأمازيغي بالمغرب"، ضمن كتاب **تاسكلا ن تمازيغت مدخل للأدب الأمازيغي**، أعمال الملتقى الأول للأدب الأمازيغي، الدار البيضاء 17–18 ماي 1991، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، 1992، ص، 11.

[15]– الناجي موحى، "خصائص الحكاية الأمازيغية"، **هسبريس**، 10 غشت 2012.

[16]– المرجع نفسه.

[17]– شفيق محمد، **لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين**، دار الكلام، الرباط، الطبعة الأولى، 1989، ص، 80–82.

[18] – المرجع نفسه، 60.

[19]–Frobenius, **Contes Kabyles**, Trad. AmokraneFeta, Aix– en–Provence, Edisud, 1995, t1, pp, 19–20.

[20]– أوسوس محمد، **كوكرا في الميتولوجيا الأمازيغية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات الأنتربولوجية والسوسيولوجية، سلسلة دراسات رقم 9، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2008، ص، 14. نقلا عن عبد الحميد بورايو، الحكاية الخرافية للمغرب العربي، ص، 92.

[21]– المجاهد الحسين، م.س، ص، 11.

[22]– ازروال فؤاد، "توظيف الحكاية الشعبية الأمازيغية في الشعر الأمازيغي الحديث"، نقلا عن Posts– AladbAlamazyghy. http:// facebook. com

[23]– شفيق محمد، م.س، ص، 60.

[24]– أقضاض محمد، **شعرية السرد الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007، ص، 101.

[25]– أقضاض محمد، م.س، ص، 79.

[26]– أوسوس محمد، م.س، صص، 16–17.

[27]– بن الشريف البشير، م.س، ص، 31.

[28]– شفيق محمد، م.س، ص، 63.

[29]– الناجي موحى، م.س.

[30]– التعريب:

اشترك الذئب والقنفذ في الحرث واستقر رأيهما على أرض خصبة، تحت أقدام التل الصخري، بعد لحظات قصيرة من العمل في كل يوم، ينبه القنفذ الذئب إلى أن الصخرة العظيمة على وشك السقوط عليهما: ما العمل؟ يقول القنفذ: دعها لي، في كل عمل جاد تلزمنا التضحية، لا طعم للعمل من غير تضحية. يتسلق التل، ويستقر أسفل الصخرة وقد مد ذراعيه يعانقها، يسلم جسده للنوم ولا يتحرك إلا مع الظل، استمر الوضع على نفس الوتيرة: الذئب يكد ويتعب، حرث فري فإصلاح ثم حصاد. والقنفذ تحت الصخرة يتظاهر بحماية رفيقه. أصبح المحصول الزراعي جاهزا، فعقد كل منهما العزم على أن يحظى بحقه لكن القنفذ اقترح أن يكون نصيب أحدهما حبوبا، ونصيب الثاني تبنا، أرضى الاقتراح الذئب وهو يؤمن قاطعا أنه صاحب حق في الحبوب، لقد أتعب نفسه طوال الموسم، والقنفذ لضالته لن يصمد أمام إلحاحه. حان يوم الاحتفال بالموسم الزراعي. فقال الذئب:

يا عمي القنفذ، لقد كنت محقا في اقتراحك، لقد اقتنعت أنني أستحق الحبوب، يكفيك وصغارك التبن لا تتعجل يا عمي الذئب، أنا ما زلت فعلا على اقتراحي، لكن كل واحد منا يستحق الحبوب، إنما عليك أن تؤدي القسم لتبرر الاستحقاق، هذه كما ترى قفة مقلوبة، تقسم بأنك المستحق للحبوب.

أن تقول: بحق الذي تحت هذه القفة أنا صاحب الحبوب، وتدحرجها برجلك، إنها حركة خفيفة لا تجدي شيئا، يقول الذئب مع نفسه، تقدم نحو القفة:

أنا الذئب، أقسم أن الحبوب لي، وأن التبن لعمي القنفذ، ودحرج القفة، ظهر على الفور سلوقي متحفز، فما كان على الذئب إلا أن يسابق الريح وهو يصيح.

لك الحب والتبن معا، أنظر، بن الشريف البشير، م.س، صص، 34–35.

[31]– التعريب:

التقا الذئب والقنفذ، فسأله القنفذ كم من حيلة عندك فقال له الذئب وأنت يا عمي القنفذ كم عندك فقال له واحدة. قال له الذئب ما العمل. قال له القنفذ سنذهب إلى بستان غني انشرح الذئب وذهبا إلى البستان، فوجدا البستان مسيجا. فكان على الذئب أن يحفر منفذا تحت السياج الشائك، اخترقاه فأصبحا تحت ظلال وارفة، ومياه عذبة، وفاكهة من كل صنف. انشرح الذئب غاية الانشراح، فطفق يقطف ويأكل، أما القنفذ فإنه يعود بعد كل وجبة إلى المنفذ الذي ولجا منه البستان، وبينما هما في حالة استرخاء تام إذ بالبستاني يفاجئهما! يتوعد الفاعل بكل الشرور. أسرعا نحو المخرج، مر عبره القنفذ، وتبين للذئب أنه من المستحيلات. لقد هلكت، ما العمل؟

قال القنفذ، يا عمي الذئب ما سمعت بالمثل القائل "وجب القياس مع الأكل"، قال له الذئب ليس هذا أوانه، فكر في وسيلة، فقال له القنفذ يا عمي الذئب استلق على ظهرك، ومد قوائمك إلى السماء، ثم ترك الذباب يغازل جسدك وتمالك أنفاسك.

والبستاني يبحث عن الجاني، قاده بحثه إلى الحيوان المنتفخ، فصاح: يا إلهي من رمى بهذه الجثة النتنة هنا؟ شرع على الفور في سحب الذئب من ذيله، إلى أن قذف به خارج البستان، انتفض الذئب، هرول نحو الغابة.

حينئذ لوح البستاني بعصاه وبأقصى صوته: لك يوم، ياذا الأذنين المقطعتين. أنظر، بن الشريف البشير، م.س، صص، 33-34.

[32]- الخنبوبي أحمد، "السياسية الميتولوجيا...أسطورة "ثمغراوشن" كمنطلق"، **الأدب الشفوي الأمازيغي معالم وأبعاد**، منشورات جمعية بويزكارن للتنمية والثقافة، مطبعة أكادير، الطبعة الأولى، 2013، ص، 45.

[33]- بن الشريف البشير، م.س، ص، 39.

[34]- المجاهد الحسين، م.س، صص، 11-12.

- قائـــمـــة المـصـادر والمـــراجـــع:

1- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955.

2- ازروال فؤاد، "توظيف الحكاية الشعبية الأمازيغية في الشعر الأمازيغي الحديث"، نقلا عن .Posts- AladbAlamazyghy http:// facebook. Com

3- أقضاض محمد، **شعرية السرد الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.

4- بوتشيش ابراهيم القادري، "النكتة كمصدر للكتابة التاريخية"، في **مؤتمر المؤرخ العربي بالدوحة**، حوار أجرته معه أنفاس بريس، الخميس 16 ماي 2019، 01: 16.

5- الخنبوبي أحمد، "السياسية الميتولوجيا...أسطورة "ثمغراوشن" كمنطلق"، **الأدب الشفوي الأمازيغي معالم وأبعاد**، منشورات جمعية بويزكارن للتنمية والثقافة، مطبعة أكادير، الطبعة الأولى، 2013، صص، 43-48.

6- المجاهد الحسين، "الأدب الأمازيغي بالمغرب"، ضمن كتاب **تاسكلا ن تمازيغت مدخل للأدب الأمازيغي**، أعمال الملتقى الأول للأدب الأمازيغي، الدار البيضاء 17-18 ماي 1991، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، 1992، صص، 9-21.

7- المعجم الوسيط، **معجم اللغة العربية**، منشورات مكتبة الشروق الدولية.

8- الناجي موحى، "خصائص الحكاية الأمازيغية"، **هسبريس**، 10 غشت 2012.

9- النصيري نورالدين، " الحكاية الأمازيغية وأشكال توظيفها تربويا"، **الحوار المتمدن**، العدد 4344، بتاريخ 24 يناير 2014.

10- أوسوس محمد، **كوكرا في الميتولوجيا الأمازيغية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات

الأنتربولوجية والسوسيولوجية، سلسلة دراسات رقم 9، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2008.

11- بن الشريف البشير، "الدور التربوي للحكاية: الحكاية الأمازيغية، فضاءاتها، أنواعها (حكايات القنفذ والذئب)"، **الأدب الشفوي الأمازيغي معالم وأبعاد**، منشورات جمعية بويزكارن للتنمية والثقافة، أكادير، الطبعة الأولى، 2013، صص، 25-42.

12- شفيق محمد، **المعجم العربي الأمازيغي**، الجزء الأول، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الطبعة الثانية، 1996.

13- شفيق محمد، **لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين**، دار الكلام، الرباط، الطبعة الأولى، 1989.

14- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، **القاموس المحيط**، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، منشورات مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 2005.

1- Camille Lacoste- Dujardin, **le conte Kabyle**, Etude ethnologique, Paris, Maspero, 1975, p, 23.

2- -Frobenius, **Contes Kabyles**, Trad. AmokraneFeta, Aix- en- Provence, Edisud, 1995, t1, pp, 19-20.